٦- الواقع الثقافي العربي في ظل العولمة

في ظل هذه الحالة من الارتباك الثقافي اطل كابوس العالمية الجديدة، في مطلع تسعينات القرن الماضي موجهاً الضربات لذاتنا الثقافية، ففي البلدان اعلن بعض مفكري الغرب ان الرأسمالية انتصرت في معركة المصير ضد الشيوعية، طبقاً لمقولات (فوكو ياما) الأمريكي الياباني الأصل في كتابه (نهاية التاريخ) وهذا يعني ان من يريد الحفاظ على مستقبله، ينبغي ان يصبح رأسمالياً وينضم إلى قافلة الرأسمالية العالمية، دون ان يضمن مكاناً معينة ثم ما لبث ان تبعه (صمويل هنتجتون) حين اصدر كتابه صدام الحضارات (١٩٩٦م) ليكشف لنا الموقف من الإسلام يشكل حجر الزاوية في هذا الصراع.

ولو تطرقنا لواقع الثقافة العربي الراهن، لوجدنا ان الثقافة العربية واجهت، وتواجه العديد من التحديات المفروضة عليها، كالغزو الثقافي والاغتراب الثقافي، والتشكيك في قدرتها في ملاحقة التطور والمعلوماتية.

ان التفاعل الثقافي أمر ضروري فهو يؤدي إلى قوة ونمو الهوية الثقافية، وقد يؤدي إلى ضعف واضمحلال الهوية الثقافية، ففي عصر العولمة نجد ان الثقافة الغربية الوافدة بشتى أشكالها تشكل خطراً على قيمنا، وعاداتنا الموروثة، بل تمثل اختراقاً للهوية الثقافية، في ظل ضعف مواجهة الثقافة العربية لهذا الوافد. ومن اثار التفاعل الثقافي تقليد الغربيين في عاداتهم وأخلاقياتهم، ومعاشراتهم الاجتماعية، ايضاً الافتتان بالثقافة الغربية.

مما ادى إلى وجود حالة من الاغتراب الثقافي، والاستلاب الثقافي، فالاغتراب حالة من الانفصال بين المرء والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، اما التغريب الثقافي فهو ابتعاد الإنسان عن ثقافة مجتمعه التي تنشأ فيها ورفضها والنفور منها نتيجة للانبهار بكل ما هو أجنبي.

ويهمنا الإشارة هنا انه تميزت العقود الثلاثة الأخيرة في مجالات ثقافة الوطن العربي بازدياد اهتمام الدول العربية بالثقافة، فقد أنشئت لها وزارات في معظم الأقطار العربية وخصصت لها اعتمادات مالية في الميزانيات السنوية ساعدت على نموها في ميادين النشر والمسرح والسينما والفنون التشكيلية والموسيقى والمتاحف، واحدث برامج

ثقافية متنوعة إذاعية وتليفزيونية. وبذلك نما النشـــاط العربي ثقافياً فازداد عدد دور النشر وما تنتجه المطابع من كتب ودوريات ونظمت المهرجانات السنوية ومهرجانات المناسـبات الثقافية بمختلف أنواعها كالشـعر والقصـة والمسـرح والموسـيقى. كل ذلك يمكن اعتباره دليل على ما توليه البلاد العربية من جهد في ميادين الثقافة والاتصـال لجعل التنمية الثقافية تواكب التنمية الاقتصادية او الصناعية.

والواقع ان التنمية الثقافية شـــرط لازم لتحقيق الأمن الثقافي الذي هو بدوره ركيزة من ركائز الأمن القومي العربي وهو ينطوي على مفاهيم كثيرة من اهمها:-

مفهوم صـــون الثقافة العربية مما يهددها من اخطار غزو ثقافي تتعرض له معظم ثقافات شـعوب العالم الثالث والثقافة العربية تواجه غزواً ثقافياً وافداً من ثقافات الغرب غزوا يرمي إلى تنميط الثقافات وجعل الشـعوب أسـيرة الثقافة الغازية تتأثر بها سـلباً وتتلقاها مفروضـة عليها دون ان تتفاعل معها وفي ذلك اسـتلاب للشـخصـية الثقافية الأصلية وتقويض لطاقاته الإبداعية.

إن أزمة الثقافة العربية ترتبط بالأزمة التي يعيشها النظام العربي.

ونحن هنا بصـدد الثقافة لكونها تشـغل حيزاً كبيراً من اهتمامات علم الاجتماع لما لها من انعكاسات على سلوك الفرد الكوني "إنسان العولمة".

ويوجد فرق بين عولمة الثقافة وثقافة العولمة. والفرق بين الاثنين كبير.

فالأوّل ان لا تكون الثقافة منحصـــرة في مجتمع النخب بل هي حق مباح للجميع وباســـتطاعة الجميع ان يحصـــلوا عليها وعلى الدول تمكين شـــعوبها من الوصـول اليها. وفي هذه النقطة تلتقي عولمة الثقافة مع ثقافة العولمة من حيث إزالة شمولية السلطة وإلغاء الحدود، وباعتبار ان الثقافة موضوع اجتماعي عام وليس ترفاً فكرياً او موضوعاً أكاديمياً.

فعولمة الثقافة هي جعل الثقافة بمثابة لغة عالمية يتحدث بها الجميع، رغم اختلافها وتعدد ألوانها من بلد إلى بلد، ولا فرق بين الغالب والمغلوب دون ان تكون العملية مفروضة.

بينما ثقافة العولمة هي فرض ثقافة واحدة وتعميمها على العالم وهي ثقافة الأقوى ويمكن تســـميتها (بثقافة الغالب تكنولوجيا) وهي ان يتكلم العالم لغة واحدة،

ويســـلك ســـلوكاً واحداً، ويتعامل مع مفردات يومية واحدة كما هو الحال في لغة الانترنت.

والخطورة تكمن هنا في قتل روح التمايز والاختلاف المفضي إلى الإبداع من خلال التلاقح والتمازج وهنا يكمن الخلل في نظرية العولمة، وعلى اعتبار ان الثقافة موضـوعاً اجتماعياً عاماً يتغير بتغيير الواقع الاجتماعي، فأهمية عولمة الثقافة تكمن في كونها عاملاً مهماً في تكوين الموروث الوجداني الإنســـاني والدعوة إلى عولمة الثقافة هي عملية التعرف على ثقافة الآخر وتقبلها.

ففي مجتمعات كمجتمعاتنا العربية يكون تأثير ثقافة العولمة كبيراً لعدم وجود ممانعة فكرية ولغياب ملامح ثقافية واضحة للمجتمعات العربي تبقى عرضة للاتهام، بالرغم من ان العالم العربي يمتلك من الممانعات والمضـــادات الكثير أولها الإســـلام كمقوي فكري وثقافي. ان التحدي الذي يواجه اللغة العربية في هذا العصر، مرده إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية الناتج غالباً عن الانبهار بكل ما هو أجنبي والظن الزائف بان التقدم لا يأتي الا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية. ان هذا الشـعور يأتي من الإحساس بالهزيمة النفسية التي يعاني منها الإنسان العربي في هذا العصر والإعجاب المتنامي بصانع الحضارة المعاصرة الذي يمثل الغالب والمنتصر.

ولعل ذلك ســـببه عدم قيام الحكومات بتشـــجيع الشـــباب ورعايتهم وتطبيق سـياسـات هدفها العدالة الاجتماعية والمسـاواة في توزيع الثروة والقضـاء على الفقر وتشجيع الشباب على الإبداع، وإعطاءهم الحرية في الرأي والصحافة في ظل مجتمع تسوده الديمقراطية والعدالة، ويشعر فيه الشباب ان لهم حقوق وعليهم واجبات، حينئذ يكون التمســك بالوطن وبلغة الوطن امراً واجباً ومقدســاً، وبأن وطنهم ولغتهم لا تقل مكانة عن أي لغة أُخرى.

ولعل من اخطر أنواع العولمة هي العولمة الثقافية ذلك ان التأثير الخطير للغزو الثقافي الغربي في عصـــر العولمة يختلف في العصـــور الســـابقة قبل اختراع الحاسوب، والانترنت، القنوات الفضائية. ان النظام الإعلامي الدولي الجديد وما يبثه من مواد إعلامية وفنية وثقافية هو من اخطر وســـائل العولمة على هوية الثقافة العربية الأفريقية لانها مواد سـامة وتصـل سـريعاً عبر الفضـائيات إلى جميع القرى

والأرياف والمدن العربية والأفريقية خاصـــــة في حالة عدم وجود تحصـــــين ثقافي وعقائدي.